

سِيَّاسَةُ الدَّوْلَةِ الزَّرَاعِيَّةُ فِي السَّوَادِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ

لِلْهَجْرِي

مِهْاسَمُ صَبَّانُ عَلِي

١ - نظام الاراضي في ظل الساسانيين :

لم يدرك الملوك الساسانيون أهمية الزراعة الاقتصادية في السواد ، ولم يلتفتوا الى حماية الفلاحين من تسلط الحاشية والامراء ورجال الدين والديهاقين ، لذا فقد انحصرت ملكية الاراضي الزراعية بيد هؤلاء السذين لم يهتموا باصلاح الاراضي الزراعية ، اذ اهتموا الري والبثوق ، واتبعوا شتى الاساليب تخلصا من الضرائب مما أدى الى انخفاض الانتاج الزراعي وقلة إيرادات الدولة (١) .

وظهرت بعض المبادرات الفردية الاصلاحية ، لكنها لم تكن مبنية على أسس علمية مدروسة ، قامت بتأثير ضغط مارسه كبار رجال الدين ، فقد حذر كبير رجال الدين (بهرام الثالث ٢٧٦ م - ٢٩٣ م) من مغبة ذلك ، فأمر (بهرام) بانتزاع الضياع من أيدي الخاصة والحاشية « وردت الى أربابها فعمرت الارض واخصبت البلاد » (٢) . لكن السداد بقيت مهمة طيلة ثلاثة قرون - تعرض فيها السواد الى فيضانات مدمرة ، أغرقت الكثير من الاراضي الزراعية العامة - الى أن جاء (انوشروان ٥٣١ م - ٥٧٨ م) الى الحكم ، فانشأ السداد والمسكنيات ، واعاد بعض تلك الاراضي الى

المصادر والمراجع والهوامش :

(١) المشعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، تحقيق محمد محيي الدين الطبعة الثالثة ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٨ ص ٢٥١ - ٢٥٣ ، كريستنسن آرثر ، ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٩٣ .

(٢) المشعودي ، المصدر السابق والجزء والصفحات .

خصوبتها (٣) . و امر بكري الانهار وحفر القنوات وسلف بعض اصحاب الاراضي الزراعية ، واعاد الجسور المقطوعة والقناطر والقرى المهمة (٤) كان الخراج يجري على أساس المقاسة ويتراوح بين العشـــــ و النصف (٥) لكن الجهشيارى يقول « فكان أكثر ما يأخذونه الثلث واقله السدس وياخذون فيما بين ذلك قدر الشرب - النصيب من الماء - والربع - المحلة والمنزلة » (٦) . وفي أيام (قباذ بن فيروز ت ٥٣١ م) مسح السواد (٧) ، وفرض الخراج على أساس الوحدة القياسية - الجريب - (٨) بغض النظر عن نوع المحصول ، ففرض على كل جريب درهمين ، والزم الناس المساحة وتحملت الدولة نفقة ومؤنة اصلاح الاراضي الزراعية ، وكري الانهار وسقاية الماء واصلاح البريدات (٩) (١٠) . واطلق ايدي الناس في املاكهم بعد أن كان محضـــــورا عليهم التصرف بها الى وقت

(٣) قدامه بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة (ملحق بكتاب المسالك والممالك لأبن حرداذبة ، طبعة لايدن) ص ٢٤٠ .
(٤) كريستنسن ، المصدر السابق ص ٣٥٠ فما بعد .

Skyles, A History of Persia, Vol. I. London 1969 p. 462.

(٦) الوزراء والكتابة ، تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الاولى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٤ .
(٧) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، المجلد السابع ، مطبعة برل ليدن ، ١٨٩١ ص ١٠٤ ، أبو يعلى ، محمد بن الحسين ، الاحكام السلطانية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الطبعة الاولى ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ١٩٦ ، لكن الجهشيارى يقول : « فهلك قبل تمام ذلك » انظر الوزراء والكتاب ص ٤ ، ويتفق معه الحنبلي ، ابي الفرج عبد الرحمن في كتابه الاستخراج لاحكام الخراج ، تحقيق عبد الله الصدري ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاسلامية بالازهر ، القاهرة ١٩٣٤ ص ٩ ، والحموي في كتابه معجم البلدان ح ٣ دار صادر ، دار بيروت ص ٢٧٣ .

(٨) مساحة الجريب تساوي ٢٤٠٠ م^٢ ، انظر : الدوري - عبد العزيز ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، الطبعة الاولى بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٨ .

(٩) الحموي ، المصدر السابق والجزء ص ٢٧٤ .
(١٠) البريدات : مفاتيح المياه ، أبو يوسف ، الخراج ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٥٢ ، ص ١١٠ .

ولم يكن هذا النظام عادلا ، فقد كان محصول الفلاح في احيان كثيرة يتعرض للتلف بسبب تأخر مجيء مفتش الحكومة لتقديره وتحصيل ما يستحق عليه من ضريبة (١٢) .

وفي عهد (كسرى انوشروان) مسحت الاراضي المزروعة (١٣) وحدد المبلغ الواجب دفعه عن كل جريب من الاراضي المزروعة ، فوضع على جريب العنطة والشعير درهم ، وعلى جريب الرطب خمسة دراهم ، وعلى جريب البرسيم سبعة دراهم وعلى جريب الرز $\frac{5}{4}$ درهم ، ودرهم على كل أربع نخلات ايرانية او ست آرامية (١٤) ، او ستة أصول زيتون واعفى بقيّة المحاصيل من الضرائب واعفى أيضا النخل المتفرق (١٥) ومن بارت أرضه او تعرض محصوله للآفات الزراعية (١٦) .

ذكروا أن الاكاسرة بعد (انوشروان) شددوا على عمال الخراج وكتبوا الى رعيّتهم « من كره منكم الاداء الى العمال ، فهذا بيت مالنا فادوا اليه . فلم يكن عامل يبسط يده الى ظلم أحد خوفا من عدول الرعية الى بيت المال باداء الخراج فيستدل بذلك على مذهبه » (١٧) . لكن الرقابة كانت صعبة جدا والجباية غير منظمة ، وكثيرا ما كانت الدولة تفرض ضرائب استثنائية عندما يعوزها المال « وكان عبؤها الفادح

(١١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، دار التراث بيروت ، ١٩٦٨ ص ٣٩ .
(١٢) دينيت - دانييل ، الجزية والاسلام ، ترجمة فوزي فهمي جار الله بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٤٦ .

(١٣) بلغت مساحة السواد في أيامه مائة ألف ألف وخمسين ألف ألف جريب ، انظر أبو يعلي ، الاحكام السلطانية ، ص ١٨٨ .
(١٤) الأراميون هم الذين زرعوا النخل في العراق ، انظر غرائب اللغة العربية لمؤلفه روفائيل نخله ، الطبعة الثانية ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ص ١٧٠ هامش (١) .

(١٥) كريستنسن ، المصدر السابق ، ص ٣٥١ ، الطبري ، تاريخ الطبري ح ٢ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبعة دار المعارف بمصر ، القاهرة ص ١٥١ .

(١٦) كريستنسن ، المصدر السابق ص ٣٥٢ ، الطبري ، المصدر السابق ، ح ٢ ص ١٥٢ .

(١٧) الجهشياري ، المصدر السابق ص ٩ .

يقع غالبا على الاقاليم الغربية الفنية وخاصة العراق » (١٨) .
لم تكن هذه المبادرات الاصلاحية ، لمصلحة الفلاحين ، انما لمصلحة الطبقات العليا - كبار ملاك الاراضي من العائلة المالكة والعاشية ورجال الدين - بيد أن معظم الفلاحين كانوا في حالة عبودية او شبه عبودية ويعتبرون من اقنان اصحاب الاقطاعات (١٩) ويخضعون للنظام العسكري كجنود مشاة دون اي أجر (٢٠) .

٢ - الفاتحون العرب وسياستهم تجاه الاراضي :

عندما دخل الفاتحون العرب السواد وعقدوا الصلح مع بعض المدن (كالحيـرة) (٢١) و (بانقيا) (٢٢) و (اليس) و (كلواذا) (٢٣) و (عانة) (٢٤) واستمروا في فتح المدن الاخرى هربت الطبقات المالكة للاراضي فقام (الدهاقين) (٢٥) بدفع الخراج للمسلمين لقاء حماية المسلمين لهم ، وكانوا يديرون المدن والضياع وفلاحها ، وعندما تم طرد

- (١٨) كريستنسن ، المصدر السابق ص ١١٢ .
- (١٩) الطبري ، المصدر السابق ح ٣ ص ٥٠٩ .
- (٢٠) كريستنسن ، المصدر السابق ص ١٩٨ .
- (٢١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ح ٣ تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، مطبعة دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧ ، ص ٣٤٠ ، المرتضى الحسيني - الشريف المرتضى علي بن الحسين ، أمالي المرتضى ، القسم الاول ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٦١ ، العموي ، المصدر السابق ح ٢ ص ٥٢١ ، الدينوري - ابن قتيبة الاخبار الطوال ، تحقيق فلاديمير جرجاس ، الطبعة الاولى ، مطبعة برل ، ليدن ، ١٨٨٨ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ابن قدامة ، كتاب صنة الكتابة (مخطوط) مصور في المكتبة المركزية بجامعة بغداد تحت رقم م خ ١٣ ص ١٧٥ ، الاغانى ، ابي الفرج الاصفهاني ، ح ١٦ ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٣٧ ، ابو يوسف ، الخراج الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

- (٢٢) ناحية من نواحي الكوفة ، انظر معجم البلدان للحموي ١/٣٢١ .
- (٢٣) الطبري ، المصدر السابق ٣٣/٤ .
- (٢٤) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٤٦ .
- (٢٥) - زعماء فلاحى المعجم او رؤساء الفرس ، انظر : شير - ادى ، الالفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٨ ص ٦٨ .

الفرس نهائيا من السواد اقصوا عن الاراضي الطبقات المالكة وابقوا
الفلاحين في اراضيهم . قال الطبري « ولم يحرك خالد وامراؤه الفلاحين
في شيء من فتوحهم لتقدم ابي بكر اليه فيهم . . . وافر من لم ينهض من
الفلاحين وجعل لهم الذمة » (٢٦) و « اقر الفلاحين ومن اجاب الى الخراج
من جميع الناس بعدما دعوا » (٢٧) .

واعاد العرب لطبقة الفلاحين المستضعفة احساسها بذاتها وردوا اليهم
اراضيهم التي كانوا يعيشون عليها وجددوا صلتهم بها ، تلك الصلة القائمة
على الجهد واكتساب ثمراته لا على الجهد الضائع الذي تسرف فيه الغيرات
والثمرات (٢٩) . وبهذا تكون الفتوحات الاسلامية للعراق عاملا لتدمير
الاقطاع القديم وتحرير الفلاحين من عبودية الارض (٣٠) .

اعطى العرب للفلاحين حرية اختيار المحاصيل الزراعية التي يرغبون
في زراعتها في حين كانوا محرومين من ذلك في العصر الساساني ، ذكروا
ان ابن خالة (كسرى) ملك (كسكر) وغرس فيها انواعا من التمر منها
تمور (الفرسيان) (٣١) الذي قال فيه الطبري « له يحميه لا يأكله بشر
ولا يفرسه غيرهم . . . الا من اكرموه بشيء منهم . . . وان ثمرهم هذا
حمى » (٣٢) . وعندما فتح العرب كسكر غنموا هذا النوع من التمر
من جملة ما غنموا ، فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين (٣٣) ، وهم الذين
كانوا يعملون فيه لكنهم حرموا من ثمراته . وبعث العرب بخمسة الى
عمر بن الخطاب وكتبوا اليه « ان الله اطمعنا مطاعم كانت الاكاسرة
يحمونها » (٣٤) .

(٢٦) الطبري ، المصدر السابق ٣/ ٣٥٠ .

(٢٧) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢٨) فاروق ، خورشيد احمد ، حضرت عمر سرڪاري ، ناشر ندوة المصنفين
دليلي شمارة ، ١٩٥٩ م ، ص ٢١٢ .

(٢٩) فيصل - شكري ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، دار العلم
للملايين ، بيروت ، ص ٧٦ .

(٣٠) الدوري ، المصدر السابق ص ٧٦ .

(٣١) ابن الفقيه ، كتاب مختصر كتاب البلدان ، مطبعة برل ، ليند ١٣٠٢ هـ
ص ١٧٥ .

(٣٢) الطبري ، المصدر السابق ٣/ ٤٥٠ .

(٣٣) المصدر نفسه والجزء ص ٤٥١ .

(٣٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

أما الأرض فقد شكلت لجنة ، من أهل المدينة ، لدراستها مؤلفة من عشرة أعضاء (٣٥) فقررت اللجنة عدم توزيع الأراضي على الفاتحين لأسباب كثيرة منها الرغبة في ضمان مورد مالي ثابت لبيت المال وقلة خبرة العرب في الزراعة ، والحرص على إبقاء العرب أمة عسكرية والرغبة في عدم حصر ملكية الأرضين بيد قلة من المسلمين في حين تحرم الأجيال القادمة منها (٣٦) .

وقد كانت أرض السواد أربعة أنواع :

- ١ - أراضي الصلح كالحيرة ، وبانقيا ، وأليس .
- ٢ - أرض الموات وهي أراضي مهلة غير مزروعة .
- ٣ - أراضي كانت بيد المائلة المالكة والنبلأ .
- ٤ - أراضي بقيت بيد أصحابها القدماء كالدهاقين .

أصبح النوع الأول ملكا مشاعا لأصحابه (٣٧) ، بعد تعهدهم بدفع مبلغ معين من المال لبيت المال ، وكان لهم حق التصرف بها كيفما شاءوا ، وأجيز لهم تباعها فيما بينهم ويقض بها الدين وتقسم في مواريتهم (٣٨) وان

(٣٥) أبو يوسف ، المصدر نفسه ص ٢٥ ، لم يرد في المصادر اسماء أعضاء اللجنة . هذا وإن اقتصار أعضاء اللجنة على أهل المدينة مرجعه كما أرى أن أهل المدينة لهم خبرة بالزراعة .

(٣٦) أنظر التفاصيل في : أبو يوسف ، المصدر نفسه ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ابن سلام - أبي عبيد القاسم ، الاموال ، تحقيق خليل محمد هراس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٧٨ - ٧٩ ، ٨٤ ، يعينى ابن آدم ، الخراج ، تحقيق احمد محمد شاكر ، الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٨٤ هـ ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٧ ، البلاذري ، المصدر السابق ، القسم الرابع ص ١٧١ ، الطبري ، المصدر السابق ٣٠/٤ ، ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، مطبعة توفيق القاهرة ، ص ٩٣ ، الحنبلي ، المصدر السابق ص ١٧ ، ٤٠ .

(٣٧) ترتن - ارثر ستانلي ، أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبش ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٤ .

(٣٨) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٤٥ ، الحنبلي ، المصدر السابق ص ٣٧ - ٣٨ .

بيعت لمسلم سقط عنه خراجها (٣٩) ، وإن أسلم أحد منهم كانت أرضه وداره لبقيتهم (٤٠) .

وسمي النوع الثاني والثالث ب (الصوافي) لأن عمر بن الخطاب استصفاهما من أهل السواد وسجلت ملكيتها باسم الخليفة (٤١) فاصبح حرا في اقطاعها لمن شاء (٤٢) ، وأول خليفة بدأ باقطاع الاراضي عثمان ابن عفان ولم يقطع خليفة قبله (٤٣) . وكان المقطمون يشرفون على اقطاعاتهم مباشرة ويشغلون فيها فلاحين يؤدون عنها نفس مقدار الخراج المتعارف عليه (٤٤) .

أما أراضي (الدهاقين) فكانت على قسمين قسم هرب منه أصحاب فانتقلت ملكيته الى بيت المال وبقي فيه الفلاحون يشكلون جمعيات شبه تعاونية ويتقاسمون الاراضي الزراعية فيما بينهم حسب امكانياتهم المادية وقدرتهم على الزرع ويتعاونون في دفع الخراج ويخصصون نسبة من المال او المحصول للأغراض المشتركة ، وكانوا يحرصون على ان يمثلهم ابناؤهم في حياته الخراج بعد توزيع المبلغ المطلوب فيما بينهم (٤٥)
٣ - ضرائب الاراضي في صدر الاسلام والعهد الاموي :

(٣٩) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٥٥ ، الطبري ، كتاب الجهاد وكتاب الجزية واحكام المحاربين (من كتاب اختلاف الفقهاء) عني بنشره يوسف شخت ، ليدن ، ١٩٢٣ ، ص ٢١٨ ، ابن سلام ، المصدر السابق ، ص ١١٦ ، ابن القيم الجوزية ، احكام أهل الذمة القسم الاول ، تحقيق صبحي الصالح ، الطبعة الاولى ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦٠ ، ص ١١٥ ، ابو يعلى ، الاحكام السلطانية ، الطبعة الاولى ، ص ١٣٢ ، ومنع بيعهما في رواية أخرى ، انظر ابن آدم ، المصدر السابق ص ٥٥ .

(٤٠) الحنبلي ، المصدر السابق ص ٣٧ ، ترتن ، المصدر السابق ص ١٥٤ .
(٤١) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٥٧ ، ابن سلام المصدر السابق ص ٣٩٩ .

(٤٢) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٥٨ ، أبو يعلى ، المصدر السابق ص ٢١١ - ص ٢١٢ ، ابن آدم ، المصدر السابق ص ٧٤ .

(٤٣) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٧٥ .

(٤٤) ديمومبيين ، النظم الاسلامية ، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص ١٣٦ .

(٤٥) الدوري ، المصدر السابق ص ٦١ .

أما القسم الثاني من الاراضي فقد بقي فيه (الدهاقين) يتمتعون باستغلاله فقط . أما ملكيته فقد انتقلت الى بيت المال . وعندما أراد عمر بن الخطاب ان يفرض الخراج على هذا القسم استدعى اثنين من (الدهاقين) وسألهم : « كيف كنتم تؤدون الى الاعاجم في أرضهم ؟ قالوا : سبعة وعشرون درهما ، فقال عمر . . . لا أرضي بهذا منكم » (٤٦) . فشكل لجنة لمسح السواد برئاسة (عثمان بن حنيف) (٤٧) ، فمسحته وكانت مساحته ستة وثلاثين ألف الف جريب (٤٨) ، عدا التلال والمستنقعات والاماكن المرتفعة التي لا يصلها الماء (٤٩) . وكانت وحدتهم القياسية الذراع العمرية وهي ذراع وقبضة وأبهام (٥٠) ، وقد اختلفت الروايات حول مقدار الخراج المفروض على هذا القسم من الارض ، فرواية تقول ، ان الخراج وضع حسب نوعية المحصول ، فوضع على جريب الحنطة أربعة دراهم ، وجريب الشعير درهمان وجريب النخل ثمانية دراهم وجريب الزيتون اثنا عشر درهما وجريب القصب ستة دراهم (٥١) ، وعلى جريب القطن خمسة دراهم ، وكذلك على السمس ومن الخضر من غلة الصيف

(٤٦) أبو يوسف ، المصدر السابق ص ٣٨ .
 (٤٧) ابن رسته ، المصدر السابق ص ١٠٤ ، ابن سلام ، المصدر السابق ص ٩٧ .

(٤٨) ابن جزواذيه ، المسالك والممالك ، برل ، ليدن ، ١٨٨٩ ص ١٤ ، ابن رسته ، المصدر السابق ص ١٠٤ ، ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، ص ٢١ ، الطوسي ، المبسوط في فقه الامامية ، تحقيق محمد تقي الكشفي ، المكتبة المرتضوية جايخانه حيدري ص ٣٤ . الحموي ، المصدر السابق ٢٧٥/٣ .

(٤٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ح ٢ ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٥٢ .

(٥٠) الماوردي ، المصدر السابق ص ١٥٣ ، ابو يعلى ، المصدر السابق ص ١٥٨ ، والذراع العمرية هي ذراع عمر بن الخطاب التي مسح السواد بها ، انظر الماوردي ، المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٥١) ابن سلام ، المصدر السابق ص ٩٧ - ص ٩٨ ، الحموي ، المصدر السابق ٢٧٤/٣ .

عن كل جريب ثلاثة دراهم (٥٢) . وهناك اختلافات عند بعض الرواة في مقدار الدراهم المضروبة على الجريب الواحد (٥٣) .

والزواية الثانية تقول ان عمر لم يراع نوع المحصول ، فقد وضع على كل جريب عامرا او غامرا (٥٤) ، يناكه الماء بدلو او غيره ، عطل او زرع (٥٥) قفيزا (٥٦) ودرهما واعفى الرطب والكرم (٥٧) .

ومع شيوع الروية الاولى لكن هناك ما يؤكد استعمال طريقة الدرهم

(٥٢) ابو يوسف المصدر السابق ص ٣٨

(٥٣) ابو يوسف المصدر السابق ص ٣٦ ، ابن رسته المصدر السابق ص ١٠٥ ، الصولي - ابي بكر ، ادب الكتاب ، تحقيق محمد بهجت الاثري ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ ص ٢١٨ ، ابن حوقل ، المصدر السابق ص ٢١١ ، ابن حزدابة ، المصدر السابق ص ١٤ ، العسكري ، ابي هلال ، الاوائل ، طنجة ، المعزب ص ١٣٦ . الطحاوي ، ابي جعفر احمد بن محمد ، مختصر الطحاوي ، تحقيق ابو الوفا الافغاني ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٧٠ هـ ص ٢٩٤ .

(٥٤) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٣٨ ، البلاذري ، المصدر السابق القسم الثالث ص ٣٧٥ ، فاروق - خورشيد ، المصدر السابق ص ٩٨ ، الحموي ، المصدر السابق ٢٧٥/٣ .

(٥٥) الصولي ، المصدر السابق ص ٢١٨ ، ابن الجوزي ، المصدر السابق ص ٩٣

(٥٦) القفيز يساوي ٦٤ رطلا ، انظر السامر - فيصل ، ملاحظات في الاوزان والمكاييل الاسلامية واهميتها ، مستل من مجلة كلية الاداب بغداد ، ١٩٧١ ، ص ٧١١ ، ويعادل الرطل العراقي ٤٠٨ غم ، انظر الرئيس ، محمد ضياء الدين ، الخراج في الدولة الاسلامية ، الطبعة الاولى ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٣٨ .

(٥٧) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٣٨

والقفيز بغض النظر من نوع المحصول (٥٨) .

وارى ان عمر بن الخطاب قد طبق الطريقة الاولى في مكان ما من السواد والثانية في مكان آخر ، او في فترات مختلفة ، لكن طريقة الوحدة القياسية ونوع المحصول كانت هي الشائعة لأنها كانت متبعة في أواخر العصر الساساني وقد طبق المسلمون النظام نفسه (٥٩) . وعلى كل حال فان ما كان يكسبه الزارع اكثر مما كان يدفعه لبيت المال .

وقد حرصت الدولة العربية على ابقاء الاراضي الزراعية بيد اصحابها ، ففي سنة ١٠٠ هـ منع الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ - ١٠١ هـ) بيع أراضي الفلاحين من أهل الذمة الصلحية أو الخراجية الى مسلم (٦٠) ، لأن بيعها الى المسلم سيحولها من اراضي صلحية او خراجية الى عشرية . وبذلك حفظت مصلحة الفلاح الذمي الذي ستبقى الارض يعوزته لأن المسلم لا يتمكن من أخذها حتى ولو بالمال . كما حفظت مصلحة بيت المال لأن العشر أقل من الخراج ، فهو يبلغ ١٠٪ من العاصل ، أما الخراج فلا يقل عن الربع وقد يصل ٤٠ - ٥٠٪ منه (٦١) .

يظهر لنا مما سبق أن خراج (عمر) كان أكثر من خراج الساسانيين ، وذلك لأن هذه الارض فتحت عنوة وصار أهلها أمرى حرب ومن حق الدولة التصرف بالارض ومن عليها ، لكنها مننت عليهم ومنعتهم امتياز زراعتها لقاء

(٥٨) انظر على سبيل المثال : ابي يعلى ، المصدر السابق ص ١٥٠ ، ابن آدم ، المصدر السابق ص ٦٧ ، ص ٢٣ ، ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٣٨ ، ابن سلام ، المصدر السابق ص ٩٨ ، الصولي ، المصدر السابق ص ٢١٨ ، ابن الجوزي ، المصدر السابق ص ٩٣ ، البلاذري ، المصدر السابق القسم الثالث ص ٣٧٥ .

(٥٩) دينيت - دانييل ، المصدر السابق ص ٤٥ ،
Brown, The Eclipse of Christianity in Asia, Cambridge, p. 44.

(٦٠) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٥٣ ، ص ٥٥ ، ابن سلام ، المصدر السابق ص ١١٤ ، ابو يعلى ، المصدر السابق ص ١٣٢ ، ص ١٨٨ ، ص ٢١٥ ، مالك - ابن انس ، المدونة الكبرى ، المجلد الرابع ، مطبعة السعادة القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، ص ٢٧٣ ، لكنه يبيح برواية أخرى ، انظر المصدر والجزء ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، الطبري ، كتاب الجهاد ص ٢١٨ .

(٦١) الدوري ، المصدر السابق ص ٢٧ .

الخراج مع نقل ملكيتها لبيت المال (٦٢) . وقد حرص (عمر بن الخطاب) على عدم ارهاقهم بالخراج ، اذ قال (لحذيفة بن اليمان) و (عثمان بن حنيف) « لعلكما حملتما الارض ما لا تطيق » (٦٣) ، فقال حذيفة « وضمت عليها أمرا هي له محتملة وفيها كثير فضل » (٦٤) ، وفي رواية « لقد تركت فضلا » (٦٥) ، وقال (عثمان) « حملت الارض أمرا هي له مطيقة ولو شئت لأضعفت » (٦٦) ، وفي رواية أخرى « لقد تركت الضعف ولو شئت لأخذته » (٦٧) ، وأمر (عمر بن الخطاب) عماله بحسن معاملته « للفلاحين واعتبر حسن معاملتهم تقوى الى الله » (٦٨) . وأمر بتأخيرهم على غلاتهم الى أن يأتي موسم الحصاد وجمع الفلة ليتيسر لهم دفع الخراج (٦٩) . وكان يحرص اشد الحرص على تطبيق العدل وعدم الحاق الضرر بالفلاحين ، اذ كان يستحلف وجهاء مسلمي السواد حول شرعية المال المجبى من السواد ، ففي كل سنة تجبى فيها الاموال كان يستدعي عشرة من وجهاء البصرة وعشر من وجهاء الكوفة « يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب ما فيه ظلم مسلم او معاهدة » (٧٠) . وكان الامام علي يوصي عماله ان لا يبيعوا للفلاحين في الخراج بقره ولا حمارا ولا كسوة شتاء ولا صيف (٧١) .

-
- (٦٢) العسكري ، المصدر السابق ص ١٣٦ .
(٦٣) أبو يوسف ، المصدر السابق ص ٤٨ ، وبنفس المعنى انظر ابن سلام ، المصدر السابق ص ٥٦ .
(٦٤) أبو يوسف ، المصدر السابق ص ٤٨ ، ابن سلام ، المصدر السابق ص ٥٧ .
(٦٥) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٧٢ .
(٦٦) أبو يوسف ، المصدر السابق ص ٤٨ ، وبنفس المعنى انظر : ابن سلام ، المصدر السابق ، ص ٥٦ .
(٦٧) ابن آدم ، المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(٦٨) ابن آدم ، المصدر نفسه ص ٤٨ .
(٦٩) ابن سلام ، المصدر السابق ص ٦١ ، الحنبلي ، المصدر السابق ص ٤٣ .
(٧٠) العسكري ، المصدر السابق ص ٢٣٨ .
(٧١) ابن سلام ، المصدر السابق ص ٦٢ ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ج ٥ تحقيق حسن تميم ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٤ ص ١٥ .

من هنا يظهر ان الفلاحين لاقوا المعاملة الحسنة من لدن الدولة العربية في العهد الراشدي ، عكس ما يدعيه (فون كريمر) الذي ذكر ان المسلمين الفاتحين « عاملوا سكان الاراضي المفتوحة معاملة العبيد واثقلوا كاهلهم بأنواع مختلفة من أثقل الاعباء (٧٢) » .

وكانت الدولة العربية الاموية قد أثقلت كاهلها المالي وتشعبت مصروفاتها فعمدت الى جباية الاموال سدا للنقص وكان الفلاحون هم المورد الرئيسي لهذه الأموال ، ولأجل الحصول على المزيد منه أهتم والي العراق (زياد بن ابيه) بالفلاحين فكان يدعو الى العناية بهم للحصول على المزيد من المال ، فكان يقول « احسنوا الى المزارعين فانكم ما تزالوا سـمـانـا ما سمنا » (٧٣) ، فجبى منهم من هدايا النيروز (٧٤) ، والمهرجان ومن الصوافي خمسين ألف ألف درهم والزمهم مؤنة حمل مال الخراج (٧٥) . وقد شعر في قرارة نفسه انه جبى هذه الأموال بطريقة غير مشروعة وانه حمل الفلاحين فوق طاقتهم ، اذ قال يوما : « اي الناس انعم ؟ قالوا : معاوية ، قال : فاين ما يلقي من الناس ! قالوا : فانت . قال : فاين مالقى من الثغور والخراج (٧٦) » .

كان الخراج حسب تعليمات عمر بن الخطاب يصرف على المرافق العامة ورواتب الجند والولاء والقضاة في الولاية المجبى منها ، لسكن

(٧٢) الحضارة الاسلامية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، دار الفكر العربي الجيزة ، ١٩٤٧ ، ص ٧٤ .

(٧٣) الطرطوشي ، ابو بكر محمد ، سراج الملوك ، مطبعة بولاق ، ١٢٨٩ هـ ص ١٢٣ .

(٧٤) اعياد فارسية ، النيروز يوم راحة وسعادة ، انظر البيروني الاثار الباقية ، لايبزك ١٩٢٣ ، ص ٢١٥ ، وانظر : الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي ، الطبعة الاولى ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩١٤ ص ١٤٦ .

(٧٥) العسكري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(٧٦) الدينوري ، ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ح ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٢٦٤ ، وانظر البيهقي - ابراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوي ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠ ص ٤٦٩ .

معاوية كان يأمن الحاجة الى المال فكان يستأثر بالجزء الاكبر منه ويطلب من زياد المزيد من المال ، فكتب زياد اليه : « يا أمير المؤمنين دوخت لك العراق وجيئت لك برما وبحرها وغيثها وسمينها وحملت اليك لبها وقشورها (٧٦) » ، وللحصول على المزيد من المال وسع معاوية أرض الصوافي ، ذكروا انه كتب الى عبد الله بن دراج والي العراق : « احمل لي من مالها ما استعين به (٧٨) » ، فكتب اليه ان الدهاقين اخبروه بوجود أرض تعود لكسرى ولأهله يجتوبون من مالها لأنفسهم ، فأمره معاوية باخصائها وضرب عليها المسينات ، فجمع عبد الله ابن دراج الدهاقين وسألهم « فقالوا الديوان المسينات يحلوان ، فبعث فاتى به فاستخرج منه كل ما كان ما كان لكسرى وآل كسرى وضرب عليها المسينات واستصفاه لمعاوية (٧٩) على هذا المسمى ولاية العراق طيلة العصر الاموي باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، فالحجاج مثلاً لم يكتف بالخراج وهدايا النيروز والمهرجان ، بل اخذ من الفلاحين الفضل من اموال الخراج وهو مبلغ اعتادت الدولة الاسلامية ان تتركه لهم يقومون به أنفسهم ويجبرون به النواصب ويسدون الحوائج فمنعه عبد الملك من ذلك وكتب اليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك (٨٠) » ، وكتب أيضاً : « ابق ليهم لحوما يعقدوا بها شحوما (٨١) » وبقى الحجاج الجزية

(٧٧) الجهشياري ، المصدر السابق ص ٢٧ .

(٧٨) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ، ١٩٦٠ ص ٢١٨ .

(٧٩) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٨٠) الماوردي ، المصدر السابق ، الطبعة الثانية ص ١٤٩ .

(٨١) الثعالبي ، خاص الخاص ، قدم له حسن الامين ، بيروت ، ص ٨٧ ، انظر التفاصيل في : الصولي ، المصدر السابق ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

على أن من أسلم من أهل الذمة من الفلاحين وأصحاب الاراضي الزراعية (٨٢) وختم على بيادر الفلاحين (٨٣) ، وتمسف في اخذ الخراج من اصحابه (٨٤) و « ضرب الابشار وهتك الحرم (٨٥) » . وقد تطرق (فان فلوتن) الى هذا التعسف فقال : « . . . ان الذي كان يسخط أهالي السواد ويزيد في حقنهم انما هي الطريقة التي كان يسلكها عمال الحجاج » (٨٦) .

وبسبب تكليف الحجاج الفلاحين فوق طاقتهم فقد باعوا كل ما في ايديهم مما ادى الى انخفاض المنتجات الزراعية وتدهور حالتهم الاقتصادية (٨٧) .

(٨٢) الطبري ، المصدر السابق ٣٨١/٦ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ح ٤ ، دار صادر للطباعة ، بيروت ١٩٦٥ ص ٤٦٥ ، البلاذري ، انساب الاشراف ح ١١ غريغروكو ، ١٨٨٣ ص ٣٦٦ ، ابن خلدون ، تاريخ العلامة ابن خلدون ، ح ٣ ، المطبعة السلفية ، بيروت ١٩٥٧ ص ١٠٧ .

(٨٣) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، مصر ١٣٣١ هـ ص ٨٨ .
(٨٤) المبرد ، ابي العباس محمد ، الكامل ، ح ١ ، تحقيق ابراهيم الدلجموني ، المطبعة الازهرية ، القاهرة ، ص ٢١٣ ، التنوخي ، نشوار المحاضرة ، تحقيق عبود الشالجي ، لبنان ، ١٩٧١ ، ص ١٣٦ ابن عبد ربه ، المقد الفريد ، ح ٥ ، الطبعة الثانية ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، ص ٢٩ .

(٨٥) المسكري ، المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٨٦) السيادة العربية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، الطبعة الاولى مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ص ٢٦ .

(٨٧) ابو يوسف ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

٤ - مشاريع الري واصلاح الاراضي :

لم تهتم الدولة الساسانية بالزراعة والري وكان منها الحصول على الخراج من ملاكي الاراضي - وهم ابناء الطبقات العليا الذين كانوا يستعبدون الفلاحين - فاهملت السداد والبثوق ، فتمرض السواد الى فيضانات مدمرة ، اغرقت المزارع والحقول والاراضي الصالحة للزراعة . وكانت هناك بعض المحاولات لسد البثوق وحماية المزارع من الفيضانات لكنها كانت متأخرة ، في غير اوانها ، وتفتقر الى الجدية والتنظيم فقد حاول (كسرى انوشروان) ان ينشئ السداد والمستنيات وأن يحفر القنوات فنجح بعض الشيء . وفي سنة (٦٢٧ م - ٦٢٨ م) (٦ هـ) زاد دجلة والفرات زيادة لم ير لها مثيل وانبثقت بثوق كبيرة ، وحاول (كسرى الثاني) أن يسكر المياه دون جدوى ، فاجتاح الماء القرى والمزارع وشرد أهلها عنها (٨٨)

ثم جاء العرب لفتح وتحرير العراق وشغلت الفرس بحرب المسلمين فاهملت البثوق وعجز الدهاقين عن سدها فعظم ماؤها واتسعت البطيحية وعظمت (٨٩) ، وفاض دجلة مرة أخرى سنة ١٦ هـ (٩٠) . وعندما اتم العرب تحرير العراق ادركوا أهمية العراق الزراعية ، وأهمية الزراعة في الحياة الاقتصادية وبأنها مصدر مالي مهم يمكن استخدامه لتنفيذ الخطط والمشاريع الإصلاحية التي جاء بها الاسلام لانتشال البشرية من الظلمات الى النور ، لذا فانهم انصرفوا الى اصلاح السداد والمستنيات وفقا لخطط علمية مدروسة فخلصوا الاراضي الزراعية من خطر الفيضانات ، وبنو فيها القرى وزرعوا بها مختلف المحاصيل (٩١) .

(٨٨) ابن عبد الحق ، صفى الدين ، مرآة الاطلاع ، جلد ١ ، طبعة وستنفلد ، برل ، ليدن ، ١٨٥٢ ، ص ١٦١ ، ابن رسته ، المصدر السابق ص ٩٥ .

(٨٩) كريستنسن ، المصدر السابق ص ٤٧٢ ، وانظر ابن عبد الحق المصدر السابق والجزء والصفحة ، القزويني ، زكريا بن محمد ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٠ ص ٤٦٦

(٩٠) كريستنسن ، المصدر السابق ، ص ٤٨٥ .

(٩١) ابن عبد الحق ، المصدر السابق والجزء ص ١٦١ .

وفي العصر الاموي اهتم معاوية بأمر البطيحة ، اذ امر مولاه عبد الله ابن دراج باصلاحها ، فقطع القصب وغلب الماء بالمسينات والسكرور (٩٢) .
واطلق على الاراضي المستصلحة اسم (الجواميد) ومفردها (الجامدة) (٩٣)

وبعد وفاة معاوية وما رافق ذلك من حروب أهلية عاشها العراق فقد فيها الامن والاستقرار واهملت مشاريع الري المختلفة كالسدود والمسنيات ، فانبثقت البثوق وكبرت وتوسعت ، وحاول (الحجاج) اصلاحها وقدر المبلغ اللازم بثلاثة آلاف ألف درهم ، فاستكثره (الوليد ابن عبد الملك) فاستأذنه (مسلمة بن عبد الملك) بالصرف عليها من حسابه الخاص على أن يعطيه خراج الارضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء فاذن له فاستصلحها ، وامتلك اراضي كثيرة حفر لها انهارا كثيرة منها النهران المسميان بالسببين (٩٤) . وانبثقت بثوق أخرى « فلم يعان الحجاج على سدها فصارت للدهاقين لأنه كان قد اتهمهم بمالة ابن الاشعث » (٩٥) .

ووجه الحجاج اهتمامه الى اصلاح القنوات المهتلة التي كانت تحيي الاراضي الواقعة في السهل المنخفض في حوض دجلة والفرات كما اعتنى باقامة السداد وبناء القناطر (٩٦) وحفر نهر الصين ونهر النيل الزاببي ، وساء زابيا لأخذه الماء من الزاببي القديم ، لتصريف الماء الزائد من دجلة والفرات قبل أن يفيض في البطيحة ولري الاراضي الجافة واخصابها من جهة اخرى (٩٧) . وعمد الى ضياع كان عبد الله بن دراج قد استخرجها لمعاوية من موات مرفوضة ونقوض مياه ومفايض وأجام ف ضرب عليها المسنيات وقلع قصبها وحازها لعبد الملك بن مروان وعمرها (٩٨) . واحيا اراضي

(٩٢) اليعقوبي ، المصدر السابق ص ٢١٨ ، وانظر الحميري ، محمد عبد المنعم ، الروض المطار في خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص ٤٣٩ .

(٩٣) سترك ، البطيحة ، (في دائرة المعارف الاسلامية ٦٨٤/٣) .

(٩٤) قدامة بن جعفر ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٩٥) البلاذري ، المصدر السابق ٤١٢/٣ .

(٩٦) المصدر نفسه ٤١٢/٣ .

(٩٧) المصدر نفسه ٤٠٨/٣ ، الحموي ، المصدر نفسه (طبعة لايدن) ٨٦١/٤ .

(٩٨) البلاذري ، المصدر نفسه ٤٠٨/٣ .

في البطيحة أيام الوليد بن عبد الملك قدرت مساحتها بخمسين فرسخا في مثلها (٩٩) .

وقد شجع سليمان بن عبد الملك واليه على العراق يزيد بن المهلب على استصلاح اراضي من البطيحة باقطاعه ما يستطيع اصلاحه واستخراجه، فاستخرج الشرقي والجبان والخست والريعية ومغيرتان (١٠٠) .
وعمل عمر بن عبد العزيز على استصلاح الاراضي بطريقة أخرى ، وذلك باعطاء الفلاحين اراضي الصوافي القليلة الخصوبة بالمزراعة بالثلث وغير الصالحة بالعرش ، وأمر بالصرف على الاراضي التي لا يقدم احد عليها من بيت المال لاصلاحها (١٠١) .

ومن الخبراء باصلاح الاراضي (حسان النبطي) ، وكيل (هشام بن عبد الملك) في ضياعه (١٠٢) ، الذي وضع خطة لتجفيف المستنقعات في البطائح ، فأستطاع اصلاح اراضي واسعة في البطيحة في عهد الحجاج أيام الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك (١٠٣) ومن آثاره الزراعية قناة حسان بالبطائح وقرية حسان بواسطة ، وحوض حسان بالبطيحة (١٠٤) ومنارة حسان بالبطيحة (١٠٥) ، وقد تقبل حسان اراضي في رستاق

(٩٩) الحميري ، المصدر السابق ص ٤٣٩ .

(١٠٠) البلاذري ، المصدر السابق ٥١٤/٤ .

(١٠١) ابن آدم ، المصدر السابق ، ص ٥٩ ، الحنبلي ، المصدر السابق ص ١٤ .

(١٠٢) الطبري ، المصدر السابق ١٥٢/٧ ، المبرد ، المصدر السابق ٦٨٤/٣

(١٠٣) البلاذري ، المصدر السابق ٤١١/٤ ، الماوردي ، المصدر السابق الطبعة الاولى ، ص ١٧٩

(١٠٤) قدامه بن جعفر ، المصدر السابق ص ٢٤٠ .

(١٠٥) ابن سراييون ، وصف ما بين النهرين وبغداد ، لندن ، ص ٢٨ .

الرمان (١٠٦) تمود ملكيتها لعبد الملك بن مروان ، فثقل ذلك على والى العراق خالد بن عبد الله القسري (١٠٥ هـ - ١٢٠ هـ) فابى حسان الا الاضرار بخالد ، فقام حسان ببثق البثوق على ضياع هشام ، وذهب الى عبد الملك وأخبره بأن خالدا قد بثق البثوق على ضياعه ، وعندما ارسل هشام رجلا وجد أنها قد غرقت .

وكان خالد بن عبد الله القسري من أشد ولاية العراق ، من بمسد الحجاج ، تحمسا للزراعة ، فقد عمل بجهد ونشاط في اكمال ما فعله الحجاج من اصلاح البطيخة ، اذ انشأ الكثير من السداد والمسنيات (١٠٧) وحفر انهارا كثيرة منها نهر المبارك ونهر خالد والجامع وكورة سابور والمصلحة وباجوري وبارنا (١٠٨) . وكان يفتخر بأنه سكر دجلة دون أن يسخر أحدا (١٠٩) ، وقد وصف أحد الشعراء هذا السكر بأنه ضخم ، فقال فيه بأنه أعظم من جبل ساتيدهما الذي يصل بحر الروم ببحر الهند اذ قال فيه .

فلم يجئها المد حتى احكمها سكرها لها اعظم من ستيدهما (١١٠)

وحاول خالد ان يحول الماء الى بطن جوض وهي اراضي زراعية واقعه ما بين حد فارس من أعمال واسط الى نحو السدس من اعمال خوزستان لكنه فشل (١١١) ، وكانت هذه الاراضي قد حرمت من المياه بسبب انبثاق دجلة اسفل كسكر وسمي هذا البثق دجلة العوراء لتحول الماء .

(١٠٦) هي نواحي واسط القصب التي بكسكر ، وهي واسط العراق ، انظر ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ٦٧/٣ ، والقبالة من تقبل العمل اي التزمه بمقد انظر الخراج لأبي يوسف ، الطبعة الثانية ص ١٠٥ - ١١٩ .

(١٠٧) الطبري ، المصدر السابق . ١٤٣/٧ .

(١٠٨) المصدر نفسه والجزء ص ١٥٢ .

(١٠٩) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(١١٠) البكري ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٧١١/٣ .

(١١١) النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، السفر الاول ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتاب ، القاهرة ، ص ٢٦٩ .

واهتم خالد العشري بالقناطر الزراعية ، فقد أصلح القنطرة التي أنشأها عمر بن هبيرة بالكوفة واستوثق منها (١١٢) . وكتب الى هشام ابن عبد الملك يستأذنه في عمل قنطرة على دجلة فكتب اليه هشام « لو كان هذا ممكنا لسبق اليه الفرس (١١٣) » وعندما ألح كتب اليه هشام ان كنت متيقنا انها تتم فاعملها ، فعملها واعظم النفقة عليها « فلم يلبث ان قطعها الماء فاغرمه هشام ما كان انفق عليها (١١٤) » .

وقد نجح خالد بسياسته هذه في استصلاح الكثير من الاراضي الزراعية ، وامتلك ضياعا واسعة حصل عليها بطرق شتى درت عليه أموالا طائلة بلغت عشرين الف الف درهم (١١٥) ، وعلى ابنه ثلاثة عشر الف الف درهم (١١٦) .

وكان يحتكر السوق لبيع منتجاته الزراعية بثمن مرتفع . ولم يكن هو المحتكر الوحيد في السوق فقد كان الخليفة هشام ابن عبد الملك هو المحتكر الاول ، اذ كتب الى خالد القسري « لا تبيعن من الغلات شيئا حتى تباع غلات أمير المؤمنين . . . » (١١٧)

واهتمت الدولة الاسلامية بجهاز الارواء ، اذ حرص الولاة والعمال على كربي وتطهير الانهار القديمة ، وحفروا انهارا جديدة ، فقد حفر سعد بن ابي وقاص نهرا بالانبار سمي باسمه لكنه لم يتمه اذ انتهى به الى جبل فاتمه الحجاج بن يوسف الثقفي (١١٨) . وحفر زياد بن ابيه نهر الابله واوصله بنهر الاجانة (١١٩) ، واعاد حفر نهر شيلي (١٢٠) فسي الانبار ، وحفر مولاة نهر شيطان بالبصرة (١٢١) ، وحفر حرب بن مسلم ابن زياد بن ابيه نهر حرب (١٢٢) وحفر مرة بن ابي عثمان مولى

(١١٢) البلاذري ، المصدر السابق ٤٠٢/٣ .

(١١٣) المصدر نفسه والجزء ص ٤٠٨ .

(١١٤) المصدر نفسه والجزء ص ٤٠٩ .

(١١٥) الطبري ، المصدر نفسه والجزء ص ١٤٣ .

(١١٦) المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(١١٧) المصدر نفسه والجزء ص ١٥٤ .

(١١٨) الحموي ، المصدر السابق (طبعة بيروت) ٣٢١/٥ .

(١١٩) المصدر نفسه (طبعة لايدن) ٨٤٠/٤ . وقيل ان الذي حفره هو ابن

موسى الاشعري . انظر الجهشيارى ، المصدر السابق ص ١٩ .

(١٢٠) الحمودي ، المصدر السابق طبعة بيروت ٣٢١/٥ .

(١٢٢) المصدر نفسه طبعة لايدن ٨٤٠/٤ .

عبد الرحمن بن ابي بكر نهرا سمي بنهر مرة ، حفره على اراضي وهبها له زياد بن ابيه بناء على توصية من عائشة (١٢٣) ، وحفر خالد القسري انهارا كثيرة مر ذكرها منها نهر المبارك الذي قيل فيه الكثير من الممدح والذم (١٢٤) . وفي ايام عمر بن عبد العزيز حفر نهر عدي بن ارمطة في البصرة (١٢٥) ، وحفر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نهر ابن عمر في البصرة (١٢٦) ، وهناك نهر آخر بالبصرة منسوب الى عبد الله بن عمير بن مالك الليثي (١٢٧) عبد الله السلمي عامل يوسف بن عمر الثقفي على البصرة نهرا باسم نهر كثير (١٢٨) ، وهناك قائمة أخرى باسماء الانهار وردت تفصيلاتها في فتوح البلدان للبلاذري وكتب البلدانين المختلفة .

- (١٢٣) المصدر نفسه والطبعة ٨٣٢/٤
- (١٢٤) المصدر نفسه (طبعة بيروت) ٣٢٣/٥
- (١٢٥) المبرد ، المصدر السابق ١٢٤/٤
- (١٢٦) الحموي ، المصدر السابق (طبعة بيروت) ٣٢١/٥
- (١٢٧) الحموي ، المصدر السابق والطبعة ٣١٥/٥ ، ابن عبد الحق ، المصدر السابق ٢٤٢/٣ ، ابن رسته ، المصدر السابق ص ٩٤
- (١٢٨) الحموي ، المصدر السابق والطبعة ٣١٥/٥

٥ - معوقات الإصلاح :

ولما كان المسلمون قد ورثوا تركة ثقيلة من المشاكل المختلفة في العراق ، ومجتمعاً متأخراً ينتابه الفقر والحرمان ، مجتمعاً زراعياً تعرضت أنهاره للدمار ، أرضه للفيضانات ومزارعه للتلف ، فارادوا انتشاره من حاضره المؤلم الى مستقبل زاهر ، تحقيقاً لهدف الرسالة الاسلامية ، فوضعوا الخطط العلمية المدروسة لتخليص هذا المجتمع من مشاكله ، وقد نجحوا في تحقيق معظم ما خططوا ، وقد رافق بعض هذه الخطط قليل من السلبيات والمعوقات - وهذا أمر طبيعي في كل مجتمع متأخر يراد تطويره - والتي قد يكون سببها عدم رغبة بعض الأجهزة الادارية في مواكبة حركة الإصلاح فعملت على وضع العصي في عجلة الإصلاح وأساءت استخدام صلاحياتها الادارية ، واهملت واجباتها الاصلية ، وانسأقت وراء مصالحها الشخصية فشوهت سمعة الإصلاح وخلقت بعض التدمير ضد الدولة الاسلامية .

فقد تعسف بعض عمال الخراج ، فحملوا الخراب على العامر ، والعامر على الخراب وحملوا الخراب أكثر من طاقته ولم يحاولوا إصلاحه (١٣٠) ، وساووا في خراج الارض رغم اختلاف بعضها عن الآخر في المساحة (١٣١) ، واخذوا من الفلاحين اضافة الى الخسراج ، العشر في البيسار وما قد ديس (١٣٢) ، كما اخذوا ارزاقهم وانزالهم (١٣٣) والمائدة والنوبة (١٣٤) واجور ضرابي النقود وثن الرقوق المستخدمة في الكتابة واجور رسل

(١٢٩) المصدر نفسه والجزء ص ٣٢٣ .

(١٣٠) الطبري ، المصدر السابق ٥١٩/٦ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ٦١/٥ ، وانظر الخراج لأبي يوسف ص ٨٦ ، وابن سلام ، الاموال ، ص ٦٥ .

(١٣١) ابن سلام ، المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(١٣٢) المؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، نشره بطرس غريان ، موسكو ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦٢ .

(١٣٣) المصدر نفسه والصفحة .

(١٣٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ح ٥ ، مطبعة برل ، ليدن ، ١٣٢٢ هـ ص ٢٨٣ ، ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

السلطان الذين يسعون بالكتب واجور القناطر (١٣٥) ودرهم النكاح (١٣٦) واجور اذابة الفضة (١٣٧) ، اخذوا هذا كله بدرهم اثقل من الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب مما كان يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الفلاحون . وعندما جاء عمر بن عبد العزيز الى الخلافة كتب الى والي الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن : « لا تأخذن من الخراج الا سبعة ليس لها اسما » (١٣٨) ويقصد بـ (سبعة) ، وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل (١٣٩) وهو الوزن الشرعي على عهد عمر بن الخطاب .

ان الاسباب التي ذكرناها دفعت الفلاحين الى الجاء أرضهم الى كبار ملاكي الاراضي المجاورين لأرضهم طلبا للتمتع وتخلصا من عسف الممال أو لدفع أقل ما يمكن دفعه من الاعباء المالية ، فعندما استصلح مسلمة بن

(١٣٥) خسيني - عبد القادر ، الادارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد المدوي القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٣١ .

(١٣٦) ابو يوسف ، المصدر السابق ، ص ٨٦ ، الطبري ، المصدر السابق ٥٦٩/٦ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ٦١/٥ ، الصولي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، أما دراهم النكاح فهي دراهم تؤخذ من البغايا انظر ابن سلام ، المصدر السابق ص ٦٦
(١٣٧) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٨٦ ، ابن سلام ، المصدر السابق ، ص ٦٤ - ص ٦٥ .

(١٣٨) ابن سلام ، المصدر السابق ص ٦٥ ، الطبري ، المصدر السابق ٥٦٩/٦ ، ويقول (آيين) بدلا من (آس) . الا ان أبا يوسف يقول « ليس فيها تبر » انظر الخراج ص ٨٦ ، ويقول فلها وزن « ان الآيين هو الكمرك وقد تكون الآيين بمعنى حق المرور فسي الطريق ٠٠٠ » انظر الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة يوسف العش مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤٤ ، ولكن كريستنسن يقول انها هبات عادية ومنها التحف التي تقدم للملك جبلا في عيدي النيروز والمهرجان ، انظر ايران في عهد الساسانيين ص ١١٣ .

(١٣٩) الماوردي ، المصدر السابق ، الطبعة الاولى ، ص ١٥٣ ، ابن سلام ، المصدر السابق ص ٧٠١ ص ٧٠٢ ، النقشبندی ، ناصر السيد محمود ، الدينار الاسلامي في المتحف العراقي ، ح ١ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٣ ، ص ١٢ ص ١٣ .

عبد الملك اراضي غطتها المياه واصبحت ملكا له وحفر لها الانهار « ٠٠٠ »
تألف الاكرة والمزارعين ٠٠٠ والبا الناس أيضا اليه كثيرا من ارضهم
المجاورة طلبا للتمرز « (١٤٠) » . وجعل البعوض الاخر يهجر الريف الى المدن،
فانخفض الانتاج وانكسر الخراج ، فكتب الحجاج ان من كان له أصل في
قرية فليخرج اليها ، فخرج الفلاحون وعسكروا وجعلوا يبكون ويندبون
ويقولون : وأحمداه ولا يدرون أين يذهبون ، وخرج اليهم قراء البصرة
مقنمين وبكوا معهم حتى اذا قدم عبد الرحمن بن الاشعث انضموا اليه في
قتال الحجاج (١٤١) ، وعندما قمع الحجاج ثورة بن الاشعث أمر « ان ينقش
على يد كل انسان منهم اسم قريته » (١٤٢) وردهم الى قراهم (١٤٣) - ولما
ولى سليمان ابن عبد الملك اخرجهم ويقال انه اخرج في يوم واحد ثمانين
الفا (١٤٤) وحال بينهم وبين عمارة الارض انتقاما منهم (١٤٥) ،
و « عمد الى رؤسائهم واهل بيوتاتهم من الدهاقين فقتلهم صبرا وجعل
كلما قتل من الدهاقين رجلا اخذ ماله واضر بمن بقي منهم اضرا
شديدا » (١٤٦) .

ثم شعر الحجاج ان القوة غير نافعة في ايقاف الهجرة ، فلجأ الى حلها
بتشجيع الفلاحين على الزراعة بتسليفتهم المال فسلفهم الفي الف درهم
ومنهم من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة لكنهم نقموا عليه لمنه ذبح

(١٤٠) قدامه بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٤٢ .
(١٤١) الطبري ، المصدر السابق ٣٨٣/٦ ، ابن الاثير ، المصدر السابق
٤٦٥/٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ٣٣٦/٣ .
(١٤٢) المبرد ، الكامل ، ح ٢ ، تحقيق محمد ابو الفضل ، القاهرة
ص ٩٧ .

(١٤٣) الجاحظ ، رسالة في بني أمية (ملحق بكتاب النزاع والتخاصم
فيما بين أمية وبني هاشم للمقرئزي ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٩٨) ،
واعتر ضياء الدين الرئيس هذا الاجراء اجراء سليما الفرض
منه انقاذ الاقتصاد العراقي من الانهيار لقلة الانتاج الزراعي بسبب
الهجرة الى المدن ، انظر كتابه الموسوم بـ (الخراج) ص ٢٠٩ .
(١٤٤) المبرد ، المصدر السابق والجزء ص ٩٧ .
(١٤٥) ابن سلام ، المصدر السابق ص ٦٤ .
(١٤٦) الصولي ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .

البقر فقال شاعرهم (١٤٧) :

شكونا اليه خراب السواد فحرم جهلها لحوم البقر

قضى عمر بن عبد العزيز على ما كان يعانيه الفلاح من تعسف بعض العمال والاعباء المالية غير الشرعية باصداره مجموعة من الكتب والوصايا الى عماله (١٤٨) ، كما شجع الفلاحين على الزراعة اذ اعطى ارض الصوافي الصالحة للزراعة للفلاحين النصارى بالمزراعة بالنصف (١٤٩) ، (١٥٠) فتعاون المسلمون والنصارى لزيادة الانتاج ، اذ أخذ المسلم يزارع النصراني، وتوزع الخراج عليهم كل حسبما يحمله له الشرع ، فكان يؤخذ من المسلم ما عليه من الحق في نصيبه ومن النصراني ما عليه (١٥١) ، اي يؤخذ من الذمي ضريبة الارض ومن المسلم عشر مما حصل في يده (١٥٢) ، كما انه منع الفلاحين من بيع آلة الزرع اذ كتب لولاته : « لا يباع لأهل الذمة آلة » (١٥٣) « لأنه اذا باع آلة الزرع لم يستطع ان يزرع فيبطل خراجه » (١٥٤) .

(١٤٧) ابن خرداذبة ، المصدر السابق ص ١٤ ص ١٥ ، ابن رسته ، المصدر السابق ص ١٠٥ .

(١٤٨) الطبري ، المصدر السابق ٥٦٩/٦ ، المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ابن الاثير ، المصدر السابق ٦١/٥ ، ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٨٦ ، الصولي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، المؤلف مجهول المصدر السابق ص ٣٦٣ ، ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق احمد عبيد ، الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ص ١٦٠ ، ابن آدم ، المصدر السابق ص ٤٨ ، ابن سعد ، المصدر السابق ٢٨٣/٥ ، ابن الجوزي ، المصدر السابق ص ٨٣ ، ص ١٦٠ (١٤٩) تسمى هذه الطريقة (المخابرة) انظر الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ، ص ١٣ ، الجواليقي ، شرح أدب الكتاب ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٨١ .

(١٥٠) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٥٩ ، الحنبلي ، المصدر السابق ص ١٤ .

(١٥١) ابن القيم ، المصدر السابق ١٤٤/١ .

(١٥٢) ابن آدم ، المصدر السابق ص ٦٢ .

(١٥٣) ابن سلام المصدر السابق ص ١٣٦ .

(١٥٤) المصدر نفسه والصفحة .

نجحت سياسة عمر بن عبد العزيز الزراعية ، فزاد الانتاج الزراعي وزادت عوائد الخراج فبلغت مائة الف الف وأربعة وعشرين الف الف بعد ان بلغت في بعض السنوات أيام الحجاج ثمانية عشر الف الف (١٥٥) .

وفي الغتام ، الزراعة مهنة رئيسية مارسها سكان السواد منذ القدم ، وهي المورد الرئيسي لمعيشهم ، وأهم مصدر مالي لخزانة الدولة الساسانية ، لكن هذه الدولة لم تهتم بالزراعة ولا العاملين فيها ، فانهضرت ملكية الاراضي الزراعية ، وبطرق مختلفة ، بيد الطبقات العليا ، التي لم يكن يهمها تطوير الزراعة والارتقاء بها نحو الاحسن . بل كان جل اهتمامها منصبا للحصول على الاموال باستعباد طبقة الفلاحين واستغلال جهودهم . فاهملوا مشاريع الري والسداد . وتعرضت ارض السواد للفيضانات المدمرة . ولا يخلو العصر الساساني من بعض المبادرات الاصلاحية لكنها كانت فردية ووقتية غير مدروسة تزول بعد برهة من الزمن ، فتعود الامور الى ما كانت عليه من اهمال شديد فيتعرض السواد الى الفيضانات والفلاحون الى مختلف النكبات .

وعندما حرر العرب العراق ، وجدوا مجتمعا يعاني مشاكل مختلفة فدرسوها بشكل جدي وعلمي ، ووجدوا أن خير طريقة للتخلص منها هو العناية بالري والسداد وسد البثوق ، فوضعوا الخطط اللازمة لتحقيق هذا الغرض .

وادرك العرب أهمية الزراعة لمد بيت المال بالاموال اللازمة لتنفيذ الخطط الاصلاحية لانتشال المجتمع من مشاكله المختلفة وتطويره نحو الاحسن فاهتموا بالزراعة والعاملين فيها ، وقضوا على الاقطاع القديم وحسروا الفلاحين من عبودية الارض ، وملكوهم حق زراعتها وجعلوا حق تملك الارض لمن يزرعها . فقد قال عمر بن الخطاب : « من كانت له ارض ثم تركها ثلاث سنين فلم يعمرها ثم عمرها قوم آخرون فهم احق بها » (١٥٦) . وقد اكد على هذه الناحية المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي

(١٥٥) ابن حوقل ، المصدر السابق ص ٢١١ ، الحموي ، المصدر نفسه

٢٧٤/٣ ، ابن خردادبه ، المصدر السابق ص ١٤ .

(١٥٦) ابو يوسف ، المصدر السابق ص ٦١

الاشتراكي عندما دعا الى تحقيق شعار « الارض لمن يعثرها » (١٥٧) لانتشال
ابناء الامة العربية من مشاكلهم المختلفة بتحقيق الاشتراكية .

واعطت الدولة العربية للفلاح الحرية في اختيار المحصول الزراعي
الذي يرغب بزراعته . وألقت الضرائب الثقيلة كالنيروز والمهرجان واهتمت
بمشاريع الارواء والسداد وسدت البثوق وحسنت حالة الفلاحين فزاد الانتاج
وعمرت الارض .

واذا كان بعض الفلاحين قد عاشوا تحت عسف بعض عمال الخراج
وبعض الولاة في العصر الاموي فهذا مرجعه سوء تصرف فردي مارسه بعض
العمال والولاة . ولم يكن من سياسة الدولة العامة او لقله خبرتهم الادارية
او اخطاء طبيعية ترافق كل حركة اصلاحية تقوم في مجتمع متأخر .

اما الهجرة الى المدن فهي ظاهرة حضارية يمكن ان نحدد اسبابها
بثلاثة عوامل رئيسية ، اولها : تضخم مصروفات الدولة العربية لاضطلاعها
بمشاريع ضخمة فاضطرت الى جباية الاموال مما دفعها الى احياء ضرائب
قديمة كان العرب قد الغوها في العصر الراشدي وقد صاحب ذلك سوء
تصرف فردي لبعض عمال الخراج . وثانيها سوء تصرف الدهاقين الذين
كانوا يلتزمون بجباية الخراج من الارض التي يحسوزتهم فكانوا يشقون
كواهل الفلاحين بالاعباء المالية . وثالثها : التطور الاقتصادي والاجتماعي
الذي شهدته المدن والذي أثمر عن توفر فرص العيش الجديدة مما كان يفري
الفلاحين ويدفعهم الى هجر الريف الى المدن .

(١٥٧) فرح الياس ، تطور الفكر الاشتراكي ، ص ٧٠ ، وما بعدها ،
وانظر بعض المنطلقات النظرية ، نضال البعث عبر مؤتمراته
القومية ، بيروت ، ص ٢٠٩ فما بعد .